الحداثة في سياق التواصل

عبدالمجيد عطار

جامعة تلمسان- الجزائر-

الملخص:

خارج عباءة الإيديولوجيا تغدو الحداثة مفهوما إنسانيا؛ حالة تواصلية مع الذات و الوجود بقياسات عصرية و زمنية يحددها أصحاب الوعي المختلف. عشق الفوضى و تخريب الذاكرة و إعلان القطيعة مع الموروث عناوين لا تمنح بالضرورة شرف الإبداع. الأخير فعل تجاوزي لموروث صنع لحظة التخلف. المطلوب حداثة أصيلة و مبدعة في آن.

مقدمة:

الحداثة واحدة من المقولات الإشكالية التي شغلت المشهد الثقافي العربي لأكثر من عقدين من الزمن، ولا تزال. إنها الإبستيم الثقافي المهيمن على لحظاتنا، أو هي واجب الوقت بحسب التعبير الصوفي. و ما يفتأ منطوق الحداثة و مسكوتها آخذا بألباب أجيال مختلفة من المبدعين من شيوخ وكهول و شباب، و لا يزال إبداعها و نقدها و تنظيرها و مجالها عالقا بالآذان و آخذا بالنفوس والأذهان، إلى الآن.

ورغم اتجاه الحديث في المحافل الغربية إلى ما بعد الحداثة؛ فإن حديث « الأنا « ما برح خطاب الحداثة تواصلا و تجديدا. و لعل ذلك عائد إلى الطابع الخلافي للحداثة العربية من حيث المفهوم و الماهية، و هذا ما يفسر تزاحم الأسئلة و تقاطع القضايا التي يستشيرها الإبداع العربي الراهن.

من هذا المنطلق، و على وقع رهانات اللحظة الحاضرة المتصلة دوما بالمستقبل، تبدو أهمية تجديد السؤال بإثارة الإشكال، إن على مستوى التنظير أو على مستوى النص، ليس فقط من أجل تحديث التجربة الشعرية العربية بمختلف تعبيراتها وحقولها، بل و قبلئذ، من أجل إعادة النظر في مقولة الحداثة ذاتها، و ما تثويه من هوية وقيم.

أولا- الحداثة الجاهزة

في زمن اللاتعين تغدو الحداثة كمفهوم و كموقف واحدة من الإشكالات التاريخية التي ما تزال تؤرق العقل العربي في تطوره التاريخي .

ثمة ملحوظات وجب ضبطها و استيعابها قبل محاولة التحاور .

تبدو الحداثة -خاصة عند من لم يساهم في إنتاجها- ثمرة أخيرة، منتجا جاهزا، تتجسد في علوم وتقنيات و في أحسن أحوال حدث طاغ .

حتى المثقفين الرواد الذين ذهبوا في القرن التاسع عشر إلى أوروبا، لم يدركوا عمق هذا الحدث أو القطيعة التاريخية التي تمثلها الحداثة، فخلطوا بين الحداثة و الثقافة الغربية، فبدت في نظرهم تعبيرا عن نظام آخر، هو نظام الغرب الفكري و الاجتماعي. و لا نزال نحن نعيد هذه الأفكار عندما نربط بين الحداثة و الغرب أو ثقافته وخصوصياته، و لا نفرق بينهما .

هكذا رأوا فيما هو حداثة، نظاما غربيا و قارنوه مع نظامهم الشرقي.و بسبب ذلك لم يبحثوا في أصل هذا الحدث الكبير الذي اسمه الحداثة، فبقي التاريخ الذي أوصل الغرب إلى ما هو عليه، تاريخ الحداثة، كله مغيبا عنا جميعا. و لا يزال مغيبا في فكرنا .

إنها الحداثة الجاهزة التي تجعلنا نستهلك الثمرة دون أن نكلف أنفسنا عناء البحث عن أصلها، عن الشجرة التي أنتجت تلك الثمرة.

المشكلة أننا ما نزال نحاول اقتناء المزيد من الثمار، إنها ثقافة الاستهلاك التي ما فتئت توجه مسار فكرنا المعرفي و التاريخي. شجرة الحداثة المختلفة عن الثمرة لم تغرس بذرتها بعد في قريتنا الثقافية، و نحن إذ لا ننكر ثقافة القطف فإننا نصر على وعي قبلي عنوانه ثقافة البذر، إنتاج قبل الاستهلاك .

ثانيا- الحداثة العربية و سؤال الهوية:

هل نستطيع إجراء مقايسة تشتمل على مطابقة لخصوصية التجربة الحداثوية العربية بالمقارنة مع تجربة الحداثة الغربية ؟

سبق التأكيد أن الحديث عن تجربة عربية يجعلنا مشدودين إلى تماه حداثي مع ما أنتجه الآخر، ابتداء من نمط التفكير إلى الملبس الذي نرتديه و البيت الذي نسكنه، و انتهاء بالمنجزات الفنية .

هذا التحول أوجد حالة انقسام في مشهدنا الحياتي، أفرز تيارين، أحدهما يناصر القديم، و آخر مع الجديد. و هذه الحالة عامة في كل المجتمعات حين تعيش بدايات التحول .

و على عتبة لحظة الحاضر نقف متسائلين: هل هناك حداثة دون تغريب ؟!

و هل شرط الحداثة ألاَّ تتواصل مع التراث ؟!

قلة من الحداثيين يدركون الأزمة و يدركون أنه تصعب المجاهرة صراحة بالدعوة إلى تحقيق قطيعة معرفية مع التراث كشرط لتحقيق الحداثة، و من ثم يتحدثون عن حداثتين لا حداثة واحدة، تأكيدا لشعار الأصالة والمعاصرة. من بين هؤلاء (سامي سويدان) في كتابه « جسور الحداثة المعلقة «، حيث يتحدث صراحة عن حداثتين في معرض حديثه عن مراحل البنيوية :

«في كل مرحلة من هذه المراحل الثلاث كانت الإنتاجات الإبداعية الحداثية تعلن عن نفسها من ضفتين متقابلتين تنهض في إحداهما أعمال ملتحقة بالطرف الغربي المسيطر مقابل بروز أعمال معبرة عن مقاومة ضد هذا الأخير بتشبثها بالقيم و الأساليب التقليدية المتوارثة، قد تلتقي مع الأولى في بعض ظواهرها و إنجازاتها دون أن تنفك نهائيا عن التواصل مع الموروث القديم في إنجازاته الأكثر عمقا و تألقا»ض.[1]

لقد أراد (سامي سويدان) أن يقيم جسرا ما، فتحدث عن حداثتين: حداثة تتجه ناحية الغرب، و حداثة تتجه ناحية التراث العربي القديم، تتفق مع الحداثة الغربية، من ناحية، و لا تحقق قطيعة مع التراث، من ناحية ثانية. الحداثة الثانية على وجه التحديد هي الحلم المستحيل الذي راوغ الحداثيين العرب حتى الآن، و هو تأسيس حداثة عربية أول شروطها التمرد على جوهر الحداثة الغربية المتمثل في تحقيق قطيعة مع التراث و التمرد عليه و رفضه.

تكمن المشكلة في حجم الانبهار الأعمى الذي أصاب الحداثيين العرب عن إدراك الاختلافات القائمة على الخصوصية، الأمر الذي دفعهم، بسبب إيمانهم بضرورة تحقيق قطيعة معرفية مع الماضي كشرط لتحقيق الحداثة، إلى احتقار التراث، ثم الوصول بالتبعية الثقافية للغرب إلى أبعد نقطة فيه و النتيجة أن أصبح العقل العربي منفعلا و ليس فاعلا.

« يلاحظ المتتبع لحركة النقد العربي الجديد في العقدين الأخيرين تدفق الدراسات الأدبية على الساحة النقدية العربية. ويبدو العقل النقدي العربي المعاصر معجبا بها، و متحمسا لها كأنه وجد ضالته المنشودة بعد صبر مديد. كما يلاحظ كثرة المؤلفات النظرية والتطبيقية و الترجمات المتعددة للبنيوية الوصفية و البنيوية التكوينية و السميولوجيا و النقد الأسطوري

و النقد التفكيكي ... إلخ .كما تدرس أسماء رولان بارت و جوليا كريستيفا و تودوروث و جولدمان وفراي و سوسير و ياكوبسون و غريماس و جان كوهين و بريموند و غيرهم و غيرهم، في الكتب و المجلات العربية. و يشعر المرء بأن العقل العربي، في معظم الأحيان يبدو من خلال ذلك كله منفعلا لا فاعلا ، مستقبلا لا محاورا ، محاكيا لا متمثلا «[2]

و قد كان (شكري عزيز الماضي) أكثر صراحة في تفسير موقفه من رفض ذلك الانبهار بالحداثة الغربية. من نافلة القول، يكتب (عزيز الماضي): « التأكيد بأننا لم نبتكر هذه الوسائل بل جاءتنا من الخارج فهي لم تنبع من سياق اجتماعي تاريخي حضاري، مثله مثل الأدوات التي جاءتنا من الخارج ولم تنبع من سياق أدبي نقدي تاريخي محلي. « [3]

إننا نعيش حالة فراغ أنتجتها القطيعة المعرفية الكاملة مع التراث والاحتقار الخفي أحيانا و المعلن أحيانا أخرى للقوالب و التقاليد القديمة والمألوفة .

إن الحداثة المؤدلجة ثورة نخبة .. و اتجاه إلى تدمير عمد النظام القديم، ومن الطبيعي أن يجيء التعبير الفني و الأدبي الذي تنتجه الحداثة «رفضا قاطعا للتقاليد الفنية السابقة، بل رفضا أيضا لفكرة التقاليد نفسها. « [4]

ثالثا- داخل الصندوق !!

لقد اتسم الخطاب الثقافي لدعاة الحداثة بالانحياز التام وغير المبرّر إلى كل ما هو غربي، وأضحت كل السجالات والاحتجاجات الّتي تبثّ في نتاجهم الفكري والفنّي والأدبي، ترمز إلى مرجعيات غربية، فيما يتمّ طمس وتجاوز كل ما يمتّ إلى الشرق وحضاراته بصلة ما.

فالنظريات الأدبيّة الحداثية ذات أصل غربي، اقتطعت من بيئاتها، وأنساقها المعرفية ثمّ استنبتت في تربة غير تربتها. أمّا ما يمتّ إلى الذات الحضارية فقد تمّ تهميشه وتغييبه أو اختزاله في مجتمع «ألف ليلة وليلة»، أو بعض الأساطير والحكايات الغريبة كأسطورة «طائر العنقاء» مثلا.

لقد استعار دعاة الحداثة عندنا مرآة الآخر، لذا أصبحوا غير قادرين على رؤية «الأنا» على حقيقتها، بل قاموا بنفيها وتدمير مقوّمات الإبداع فيها.

لم يكن لدعاة الحداثة من همّ غير اجترار، واقتباس، وتكرار المقولات والنظريات والآراء المتنوّعة لرموز الثقافة والأدب والفن في الغرب، وبشكل مشوّه أحيانا.

ولعلّ مراجعة سريعة لما تنشره الدوريات الّتي تهتمّ بأدب الحداثة منذ مجلّة «شعر» الّتي أصدرها (يوسف الخال)[5] في بيروت منذ ما يزيد عن الأربعة عقود، ترينا الحالة الّتي انتهى لها الأدب العربي الحديث، بما يعبّر عنه نفي الخصوصية الّتي ترتسم فيها هويّة الأمّة، والحثّ على الاستتباع القسري للأنساق المعرفية الغربية، من خلال ابتسار التّراث، واختزال الماضي، وتجاوز حاضر الأمّة، بل وإجهاض مستقبلها.

إنه الاستلاب؛ افتتان بموضات وشعارات ليست إلاّ تجليات وتعبيرات للوعي واللاوعي الغربي المتصدّع والمتأزّم في آن[6].

لقد نشأ عن شيوع هذا الاتجاه بين دعاة الحداثة، إحداث قطيعة قاسية مع الماضي الذي يختزن الإمكان الحضاري للرّقي والتقدّم، ويمثّل الرّكيزة الأساسية للبناء والتنمية لما يتجسّد فيه من جذور الأمّة وعمقها الفكري، وصيرورتها التاريخية، وتميّزها الحضاري[7].

كما أسهم ذلك في تسطيح الفكر، وغياب روح الإبداع، وتغلغل الانبهار بالآخر الذي راح يحفر وينقّب في تراثه اليوناني والإغريقي عن الأساطير، الّتي ما انفكّ أدبهم من ترميزها، وترديدها في الشعر والنثر.. ليسير أدباؤنا الحداثيون على الخط نفسه، فيقوموا بتفريغ الوعي الذاتي، واستدعاء نمط آخر من الوعي، والحرص على تدجينه، وهم يعلمون أنّ بيئته الاجتماعية والثقافية أكثر ما تكون بعدا عن بيئتنا وثقافتنا.

لم يتوقف الأمر عند تحطيم أسس الوعي بالذات، والحثّ على استنبات الوعي بالآخر، بل اتجه الأمر إلى التأكيد على مهمّة أخرى، تمثّلت في جلد الذات، والقول بتأصّل مركّب نقص حضاري تحمله الأعراق غير الآرية.

من هنا حثّ البعض على محاكاة النموذج الغربي وتقليده بصورة تامة.

وماذا كانت النتيجة ؟

مفارقة تعيدنا إلى التأمل من جديد في واقع الشعرية العربية الراهن وآفاقها، وقضاياها، خاصة وأنّ الشعر بات يعيش مأزق الاتصال والتواصل بينه وبين الواقع والمتلقي.[8]

رابعا- أين الخلل ؟!

إنّ الذي يدعو للدهشة هو تعاون الأنا مع الآخر في نفيها لذاتها، ورفضها لتراثها. لقد انبرى دعاة الحداثة عندنا لمواصلة المشوار الذي بدأه الآخر في تهميش التراث والهجوم على الماضي والحاضر.

والنتيجة، ثقافة لا تنظر إلاّ بعين واحدة هي عين «الآخر».

إنّ الوعي المشوّه الذي يسود بين قطاع واسع من الأجيال الجديدة في بلادنا، هو نتيجة طبيعية للتجاهل والنّفي المستمر، الذي يمارسه دعاة الحداثة في مجتمعاتنا، إثر انبهارهم بالعواصف الأدبية، والتيارات الفكرية الغربية، والّتي ليست إلاّ موضات موسمية، معروفة ومألوفة عند أهلها، سرعان ما يتمّ اكتشافها عندما تخبو عنها الأضواء، بعد سنوات من صعودها، ومن ثمّ تراجعها وضمورها، وربّما تلاشيها، وكأنّ الإنسان الشرقي الذي أدمن على إعادة استهلاك بعض السلع، والألبسة الّتي استخدمها الغربي في أوّل عمرها، ثمّ نبذها بعد ذلك خارج الحدود، يعيد هذا الإنسان – الشرقي – استهلاك الأفكار، والنظريات والأطر المعرفية، الّتي غابت عن أسواق الثقافة الغربية منذ حين.

بهذه الكيفية تنحرف الرؤية، ويتلاشى الشعور بالأصالة، ويتنامى الإحساس بالدّونية، فتندثر الأنا في صور الآخر، ولا ينكشف شيء من صورة الأنا، إلاّ عبر تجلّيه في وعي الآخر. (٩)

لقد دأب دعاة الحداثة في ديارنا، على قمع كل محاولة مشروعة للدّفاع عن الذات، من خلال إلصاق شتّى التّهم بها، وإطلاق النّار عليها،فلم يكن الإبداع عندهم إلاّ محاكاة للآخر في إبداعه.

لم يتوقف الأمر عند استنساخ صورة الأنا والتراث اللذين تشكّلا في الخيال الغرب، وإنّما كان ثمّة سعي لإجهاض أيّة محاولة أو مشروع تأصيلي، يعنى بالتحصين الثقافي، والتأصيل الحضاري.

تلك هي التجربة الحداثية في الثقافة العربية، تجاوز وتماه.. أما التجاوز فلموروث الأمّة الحضاري، وأما التماهي فمع الموروث الغربي.

لذا يصحّ القول: لم تكن هناك حداثة.. بل مجرّد تقليد للآخر وانبهار به، والحداثيون العرب الذي عابوا على المحافظين سلفيتهم، كانوا هم الآخرون سلفيين.. بيد أنّ سلفهم الصّالح كان (بوودلير)، (رامبو)، (إليوت)...

إنّ حداثتنا لم تنتج ذاتها؛ إنها أعلنت عن نفسها مشروع تبعية للآخر!!.

خامسا- المنعطف

قد يقال إذن: ما الموقف من الحداثة ؟!

ألا يعني رفضها الخروج من مسار الزمن، والتوقف في أخاديد التراث؟؟.

في الإجابة على ذلك ينبغي أن نتنبّه إلى أنّ المرفوض من الحداثة هو ذلك النظام المعرفي الذي يقوم على القطيعة مع تمام الماضي، والتراث والدّين، وتجاوز كل خصوصية حضارية، والانصهار التام في بوتقة الغرب، أو التبعية الذليلة في كل شيء، ثمّ التخلي في النهاية عن الأنا والفناء في الآخر.

لا يعني البيان المتقدّم، التشرنق والانغلاق على الذات، وتعطيل حركة التبادل المعرفي، والتفاعل الحضاري، الذي هو أمر لازم لحركة الحداثة وازدهارها وتكاملها.

كل ما في الأمر إعداد المناخ المناسب، وتهيئة الأرض للاستنبات، وهذا لا يتأتّى إلاّ بعد معرفة الذات والوعي بها، واستدعاء ما تكتنـزه من عناصر حيوية. فالوعي بالذات هو المنطلق الأساس للتّواصل مع الآخر، ومن ثمّ تجاوز حالة التكرار، أو التمحور.

فحتّى نكون من جديد ينبغي أن نبدع من جديد، وحتّى نبدع من جديد ينبغي أن نستدعي التراث ونستلهم العناصر الحيوية في ماضي الأمّة، لكي يكون حضورنا أصيلا في العصر وفعّالا فيه.

إنّ انبثاق تيار الإبداع في الأمّة لا ينطلق من تخوين الأنا وتبرير هيمنة الآخر، ولا على القطيعة المعرفية مع ماضي المجتمع.

الإبداع ينبغي أن يكون اجتهادا يحتضنه التراث.. أن يكون ذا نسب وصاحب انتماء.. ضاربا بجذوره في أعماق الذات الحضارية. « وتراثنا حافل بالعوامل المساعدة على نهضة علمية ومعرفية اليوم ، يكفي فقط أن نلتفت إليه بعناية تامة ، وجهد خلاّق لكي نصبح شيئا فاعلا في دنيا اليوم.»[10]

ربّما لم نجب بعد عن السّؤال : ما الموقف من الحداثة ؟

سادسا- نحو حداثة أصيلة

الواقع، ليست مجتمعاتنا العربية بأقلّ حاجة إلى بعض معطيات الحداثة من المجتمعات الغربية، لكنّنا نرفض أن تكون الحداثة العربية مجرّد استنساخ للحداثة الغربية، فلكلّ دورته الحضارية والتاريخية.

المطلوب حداثة نابعة من ضرورة عربية خالصة، منطلقة على أساس متين من المنهج الاستدلالي العقلي في الفكر، والاستخدام السليم للّغة في الأدب.

لا خلاف في أنّ المجتمع العربي بحاجة إلى ما يفكّ قيوده.. إلى حداثة تغيّر وتجدّد.. تنتقل من النّقل إلى الإبداع. لكن على أسس علمية ومعرفية سليمة ومدروسة بعناية.

هذا ما يحتاج إليه مجتمعنا.

أمّا حداثة تهدم القيم الأصيلة والمعاني الراشدة، فلا عقل يقبلها ولا تاريخ يرحمها.

إنّنا مع حداثة تعيد الصياغة وفق ضوابط سليمة، ولسنا مع حداثة تجرّ الأدب إلى ظلمات العبثية والسوداوية المغرقة أو الخيال المفرط، أو الواقعية المتعفنة الّتي تفسد الفرد والمجتمع.

من حق شعرائنا وأدبائنا الاستفادة من إيجابيات الحداثة، من الوعي المبدع، من الخيال الخلاّق، من الأبعاد الجمالية الأخّاذة، من الظلال الفنية الموحية.

أمّا التلبّس باللاّهدفية والفوضى الفكرية واللّغوية، والانبتات عن الجذور، والضياع في بحر الطلاسم والتغامض.. كل هذا لا جدوى منه، ولا رجاء فيه، ولا قيمة له.

الحداثة المعادية للتراث تكثر من الجراحات والتصدّعات وتفتح مساحات الفوضى، وتدفع باتجاه العبث.

إنّ الحداثة في نسختها العربية بحاجة ماسّة إلى المراجعة، ونحن « محتاجون إلى العودة إلى الأصالة.»[11] قالها (محمود درويش)، وأضاف: «الحداثة دمّرتنا جميعا، القصيدة العربية أصبحت قصيدة واحدة تألّب على كتابها آلاف الشعراء .»[12].

و البديل؛ أين؟؟

في الحقيقة والواقع، يكاد يكون لكلّ قديم جديد، بحيث أنّ كل حديث سيصبح في يوم ما قديما. هي سنّة لا تتخلّف، فكل مرحلة لاحقة من مراحل البشرية تعتبر حديثة بالنسبة إلى مرحلة سابقة، وإنّ مرحلتنا اليوم ستصبح قديمة في يوم من الأيام؛ عندما يطرأ على الحياة الاجتماعية للبشرية تحوّل مهمّ جديد، ذلك أنّ كل مرحلة سلّم للّتي تليها.

في ضوء هذا نفهم أنّ الحداثة « هي المشاركة والمساهمة في التحوّل الكبير الذي تشهده الإنسانية »، بين كل مرحلتين متتابعتين.

والمشاركة حتّى تكون فاعلة..و مؤثرة ينبغي أن تستصحب معها ثوابت الأمّة وقيمها الحضارية، ثمّ تدخل هكذا عصر.

إنّه إذا كان جهود مثقفي الحداثة الغربية – ولأسباب تاريخية – قد انصبّت على

الهجوم على الدّين، وتفكيك العادات والأواصر الاجتماعية، وكسر الرموز التراثية، فليس من العقلانية في شيء أن نتّبعهم شبرا بشبر وذراعا بذراع، للآتي من الأسباب :

1. الحداثة الغربية قد استنفذت أغراضها وفقدت كل مبرّرات وجودها، حتّى أنّ الغرب نفسه قد ملّها وسئمها، وبدأ يتحرّك للثورة عليها بعد أن اكتشف مثالبها ومساوئها، وأحسّ بالنّفق المظلم الذي أدخلته فيه، فراح يلتمس طريقه إلى ما سمّي بـ (ما بعد الحداثة). [13]

وما بعد الحداثة ليست تطويرا للحداثة ولا تجديدا لها ولا انبثاقا عنها وإنّما هي نقيضها وضدّها والرّافضة لها.

ما بعد الحداثة ثورة ضدّ تفرّد العقل والعلم ومحاولة العودة إلى الإيمان. فلقد انهار – في الغرب – الاعتقاد بسيادة العقل وحده، وخاب الأمل بوجود الحداثة المتمثلة بتحرير البشر من الطبيعة، وبإنهاء الاستغلال والسيطرة، وبنقل البشرية إلى جنّة أرضية موعودة. ولقد ذهب بعض الغربيين بعيدا في هذا المجال، حتّى قال البيئيون: « إنّنا في سعينا للتحكم بالطبيعة إنّما نقوم بتدميرها وتدمير مستقبلنا كجنس بشري في الوقت نفسه.»[14]

إنّ تيار ما بعد الحداثة –في الغرب– ينذر بأنّ العقل لا يستطيع – في التحليل الأخير– أن يتحكّم بالطبيعة، بل إنّ الطبيعة هي الّتي تنتقم منّا، ويعني ذلك أنّ هناك –في النهاية– قوّة أخرى أقوى من العقل البشري. [15]

وهذا بالضبط ما كان يقوله الدّين على الدّوام.

لكن للحداثة رأي آخر؛ يقول (ماكس ويبر): «إنّ الحداثة هي خصم الائتلاف والوحدة بين السماء والأرض ممّا يخلي العالم من وهمه ويلغي سحره «. [16] ويرى (بودلير) أنّ الحداثة هي: «حضور الأبدي في اللحظة العابرة فيما هو مؤقت.»[17] أمّا (شوبنهار) فالحداثة عنده: « تعني الأنانية والتخلّي عن الطابع الاجتماعي، لا لتخلق نظاما جديدا، مستحيلا، بل طلبا للإخلاد إلى الحياة والرّغبة .»[18]

والحلّ – كما تقول نظرية ما بعد الحداثة – في تدمير الأنا ووهم الوعي، والاحتراس من وهم النّظام الاجتماعي الذي يحمي شهوات الأنانية فقط، وتجاوز الوعي الذي شكّل فيه الإنسان المحور والجوهر الأساس للانطلاقة نحو إثبات ذاته الموضوعية في مركز الكون، يوم ابتدأت الانعطافة في تاريخ البشرية نحو شمولية الانسان لنظامه الخاص وفق المعايير الذاتية.

المراجعة إذن قائمة، والمنظومة الفكرية الغربية المنشأ هي قيد النّظر والبحث في دوائر

المؤسسات الفكرية والأطروحات الدراسية العليا الآن هي تحت المجهر المعرفي الابستمولوجي والسوسيولوجي للمجتمع الغربي.

نقطة البدء تكمن في العودة إلى الذات لمعرفة الانحطاط الذي تواجهه الانسانية في مسيرتها التاريخية وتعثّرها في تمفصلات واقعها، ممّا يستدعي العودة والمراجعة لهذه الذات ضمن المعايير الأخلاقية وإعادة الانسان إلى انسانيته وعدم فصله عن الله.

«إنّ البرجوازية والرأسمالية المسيطرتين في الغرب، دفعتا الجنس البشري إلى الأمام ليحرّر نفسه من سلاسل الطبيعة، ولقد رافق ذلك استبدال الإيمان بقوّة عظمى بالاحتمالات غير المحدّدة الناتجة من مخيّلة الانسانية.»[19] كل ذلك توارى مع انهيار الإيمان بقدرة الإنسان على حلّ المشاكل الاجتماعية.

يقول (أليكس كالينيكوس): « يجب أن نفهم ما بعد الحداثة - بوجه رئيسي - كاستجابة لفشل التحوّل الكبير في الفترة ما بين 1968-1976 في الوفاء بالوعود الثورية الّتي أطلقها، فما الذي يمكن أن يكون أكثر تطمينا لجيل انجذب نحو الماركسية، ثمّ ابتعد بفعل ما شهده العقدان الماضيان من صعود وهبوط سياسيين».[20]

أمّا (ستيفن سيرمان) فقد كتب: « لقد ترافق صعود الحداثة مع تحوّل ابستيمولوجي من الميتافيويقا إلى الوضعية، وحلّ محلّ الإيمان بوجود حقيقة مطلقة لا يستطيع الإنسان استيعابها البحث عن المعرفة الجزئية الّتي يمكن تجميعها والتأكّد من صحّتها بوساطة الأساليب العلمية، وكان ذلك عبارة عن تحوّل من الإيمان بالحقيقة المطلقة الّتي تتحكّم بالحياة البشرية، إلى الإيمان بحقائق علمية جزئية يستطيع الإنسان استخدامها للسيطرة على الطبيعة، وهكذا بات الهدف النهائي للعقلانية العلمية اكتشاف سرّ الكون والحصول على المعرفة الشمولية الكبرى، إلاّ أنّ الدين ينكر إمكان إنجاز مثل هذه المهمّة لاعتقاده بوجود حقيقة مطلقة، لا يمكن اكتشافها، وهذا ما تقول به نظرية ما بعد الحداثة، وإن عبر طريق مختلف، فهي ترفض السّعي للأنساق الفكرية المغلقة، وتنكر إمكان اكتساب المعرفة التامة عبر الطرائق العلمية، إذ ترى أنّ العقل ليس مصدرا موثوقا للمعرفة، فهو نفسه جزء من مشروع الهيمنة، والحقيقة المطلقة لا يمكن التوصّل إليها، لأنّ لكلّ فرد حقيقته الخاصة، وفي غياب الحقيقة المعروفة موضوعيا، لا يبقى سوى المعتقدات الذاتية، وهذا ما يعود بنا إلى الإيمان.»[21]

2. ثاني أسباب عدم تبنّي الحداثة بمنظورها الغربي يكمن في أنّ الإسلام ليس غيبا محضا كالأديان الأخرى، ولا يقوم على أسس نظرية وخيالية ومثالية، إنّما هو دين عقلي واقعي

يتّسم بتشريعات عملية، تشمل كل مجالات الحياة السياسية والاجتماعية والروحية بتوازن وانسجام وواقعية.

فإذا كان رجال النهضة في الغرب برّروا نبذهم للدّين بسبب تصرّفات الكنيسة الّتي لم ينس التاريخ أصفادها وأغلالها الّتي كانت تغلّ بها العلم والعقل باسم الدين، تلك القيود الّتي اعتبرت الكابوس البشع الذي كان جاثما على صدر الفكر والعقل، ممّا دفع إلى التمرّد وإعلان النّفير ضدّ كل المفاهيم والقيم الدينية، فإنّنا نسجّل هنا الفارق الكبير بين الكنيسة والإسلام في نظرتهما للعلم والعقل.[22]

3. إذا كان رواد النهضة في الغرب قد أدركوا منذ البداية أنّه لا يمكن كسر قيود الجهل والتخلف، ما لم يقضوا على الحلف غير المقدّس بين الكنيسة والملوك، وقد رفعوا يومها شعار « اشنقوا آخر الملوك بأمعاء آخر القساوسة.» فإنّ ما ينبغي التنبّه إليه هنا أنّ التاريخ لم يتحدّث عن تحالف من هذا القبيل بين العلماء والسّلط السياسية داخل جغرافيتنا الحضارية.. اللّهم إلاّ النـزر اليسير.

تلك هي بعض موانع نقل الحداثة بصورتها الغربية إلى عالمنا العربي.. وما ينبغي رفضه هو الأسلوب المتّبع في ملء الفراغ المعرفي والنظري بالاستعارة من الغرب، نأخذ الفكرة ونقيضها، دون أنّ يكون لخصوصيتها دور كبير ولم نقف منها موقفا نقديا، ولم نقرأ الشروط الاجتماعية الّتي احتضنت ولادتها[23]... إنّنا نستورد نظما معرفية منـزوعة من سياقها الاجتماعي، وإن جاز هذا في الماضي، فهو يتناقض جوهريا مع توجه المعرفة الجديد نحو زيادة تفاعلها مع بيئتها الاجتماعية.

إلغاء التراث، تخريب الذاكرة، الانطلاق من العدم، الاتّكاء على الوافد، كلّها عناوين لا تصلح لحداثة ذات هويّة عربية.

إنّنا في المقابل بحاجة إلى حداثة مؤصّلة، مجدّدة، محاورة، تتّكئ على الموروث وتستدعي الوافد في صورة عقلانية لا إفراط فيها ولا تفريط، «فالحداثة ليست مفهوما أيديولوجيا غربيا، وإنّما هي مفهوم انساني عام يرتبط بعلاقة كل أمّة بالزمن والعصر الذي تعيشه، ومدى ما حقّقته من تقدّم وتطوّر يتناسب وحركة الزمن والعصر كما هو في وعيها.»[24]

بهذا المعنى يمكن تجاوز مجموعة من الأوهام ارتبطت بمنظومة الحداثة، والّتي حدّدها (أدونيس) في خمسة، هذا بيانها :

1. وهم المغايرة : الذي يرىٰ أصحابه أنّ التغاير مع القديم، موضوعات وأشكالا، هو الحداثة أو الدليل عليها، وينتج عن هذا الوهم القول بآراء حول بنية القصيدة، وحول الوزن ووحدته الإيقاعية، وحول مضموناتها. ويكفي الشاعر في منظور هذا الوهم أن يصنع قصيدة تغاير، بموضوعها وشكلها، القصيدة الجاهلية أو العباسية لكي يكون حديثا. وهذه نظرة آلية تقوم علىٰ فكرة إنتاج النّقيض، وهي تحيل الإبداع إلىٰ لعبة في التضاد.

2. وهم المماثلة: في رأي بعضهم أنّ الغرب مصدر الحداثة، اليوم بمستوياتها المادية والفكرية والفنية، وتبعا لهذا الرأي لا تكون الحداثة خارج الغرب، إلاّ في التماثل معه، ومن هنا ينشأ وهم معياري تصبح فيه مقاييس الحداثة في الغرب، مقاييس للحداثة خارج الغرب.

تبدو المماثلة هنا استلابا كاملا – أي ضياعا في الآخر حتّىٰ الذوبان –، والحق أنّ شعر المماثلة مع الخارج ليس إلاّ الوجه الأكثر إغراقا في ضياع لشعر المماثلة مع الموروث التقليدي المحتذىٰ.

3. الوهم الثالث شأن الوهم الرابع، فنّيان يرتبطان عضويا بوهمي المماثلة والمغايرة، الأوّل وهم التشكيل النثري، والثاني وهم الاستحداث المضموني. وهذا رائجان اليوم، وهم النثر استغراق في المغايرة – المماثلة. ووهم المضمون استغراق في الزمنية.

4. الوهم الخامس هو الزمنية. فهناك من يميل إلىٰ ربط الحداثة بالعصر، بالراهن من الوقت، من حيث إنّه الإطار المباشر الذي يحتضن حركة التغيّر والتقدّم أو الانفصال عن الزمن القديم. والواقع أنّ هذه نظرة شكلية تجريدية، تلحق النصّ الشعري بالزمن، فتؤكد علىٰ اللحظة الزمنية لا علىٰ النص بذاته، وعلىٰ حضور شخص الشاعر، لا علىٰ حضور قوله. وهي، من هنا تؤكد علىٰ السطح لا علىٰ العمق، وتتضمن القول بأفضلية النص الراهن علىٰ النص القديم. وخطأ هذه النظرة كامن في إغفالها أمرا جوهريا هو أنّ حداثة الإبداع الشعري غير متساوقة، بالضرورة مع حداثة الزمن، فإنّ من الحداثة، ما يكون ضدّ الزمن، كلحظة راهنة. ومنها ما يستبقه، ومنها ما يتجاوزه أيضا، فحين يهزّنا اليوم شعر (امرئ القيس)، مثلا، أو (المتنبّي)، فليس لأنّه ماض عظيم، بل لأنّه إبداعيا يمثّل لحظة تخترق الأزمنة.

فالإبداع حضور دائم، وهو بكونه حضورا دائما، حديث دائم.[25]

الحضور في العصر إذن، أو مغايرة القديم، أو مماثلة الآخر ليست بالضرورة مداخل باتجاه الحداثة، فالأخيرة إبداع، ومشاركة إيجابية ، وفعل تخط لتقليد أعمىٰ. وبهذا المعنىٰ يمكن أن

نعثر في موروثنا الثقافي والفنّي على حداثات كانت تجارب رائدة ونموذجية في التعاطي مع الإبداع. نذكر منها – على سبيل المثال لا الحصر –التجربة الروحية والفنية الّتي مثّلتها مدرسة التصوّف الإسلامي. فقد كان علم التصوّف وأدبه رؤية جديدة، وتنظيرا حديثا، وممارسة إبداعية، وأدبا جماليا، وشعرا مغايرا، لكن كل ذلك في نطاق أصالة فعّالة لا تنطلق من العدم، ولا تولد من لا شيء.

- أما بعد...؛

فإن التوق إلى اللامحدود و اللانهائي، و عشق الفوضى و الانجذاب لشهرتها ... و نقل الفكر و اللغة إلى مجال الغواية عناوين لا تشكل بالضرورة مؤشر سلامة المسار .

تكفينا محاولة بداية، لكن عن سابق مثال، و دون مفاصلة، ذلك أن الانطلاق من اللامثال أي من الفراغ عملية مستحيلة؛ لأنه لا شيء يولد من لا شيء .

عندها يمكن العثور على اكتشاف جديد لحداثة جديدة تتكئ على الموروث ولا يضيرها أن تحاور الوافد.. فالحكمة ضالة العاقل!.

قائمة المراجع :

(1)سامي سويدان: جسور الحداثة المعلقة: من ظواهر الإبداع في الشعر و الرواية و المسرح. بيروت: دارالآداب،1977، ص:12

(2)شكري عزيز الماضي: من إشكاليات النقد العربي الجديد. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات و النشر،1977، ص: 180-181

(3)المرجع نفسه، ص: 155

(4)شكري عياد: المذاهب الأدبية و النقدية عند العرب و الغربيين. الكويت: سلسلة عالم المعرفة،1993، ص: 69

(5) يوسف الخال : شاعر سوري ، رئيس تحرير مجلة "شعر" التي انطلقت عام 1957م وتوقفت عام 1964م ، وهي الّتي مهّدت لظهور حركة الحداثة بصفتها حركة فكرية. توفي يوسف الخال منتحرا أثناء الحرب الأهلية اللبنانية.

(6) كانت الحداثة بداية للموت وإنتاج القيم العدمية للأشياء ابتداء من إعلان (موت الإله) عند (نيتشه) إلى موت الإنسان ما بعد نيتشه. يقول صاحب (نهاية الحداثة) (جياني فايتمو) : « إنّه يمتنع علينا إنكار صلة تربط بين أزمة الخط الإنساني وموت الإله ، بادئ ذي بدء ترسم هذه الأزمة العلامة المميّزة تماما للإلحاد المعاصر الذي لم يعد بإمكانه أن يكون إلحادا من النمط المستعيد – أي استعادة الإنسان لماهيته – ولكن بعد ذلك وبشكل أعمق تؤشر بشكل حاسم إلى وقوع الخط الإنساني هو ذاته في أزمة ، إذ لم يعد بوسعه بين جملة أمور أخرى أن يقرّر الرجوع إلى أساس متعال ». من هذا المنظور « يمكن القبول بالقضية القائلة بوقوع الخط الإلهي في أزمة لأنّ الإله (مات) – وهذا يعني أنّ الجوهر الحقيقي لأزمة الخط الإنساني هو هذا (الموت) الذي حدث للإله والذي أعلنه نيتشه المفكر الأوّل اللاإنساني بشكل جذري لعصرنا ، ولم يكن هذا الإعلان طارئا ». نقلا عن حامد السعدي : مفهوم الحداثة ومراجعاته النقدية ، مجلة النبأ ، عدد57، لبنان: المستقبل للثقافة و الإعلام، 2000، ص : 2.

إنّ الأزمة الّتي يعيشها الإنسان المعاصر هي أزمة ملازمة ، ما دام أصبح هو المتقلّد لشأن الوجود ، وبعد حصول الانفصام بين السماء والأرض ، بين الله والإنسان وانتقال الزعامة إلى الإنسان.

(7) عمر عبيد حسنة : في النهوض الحضاري ، بيروت: المكتب الإسلامي،2003، ص : 53 وما بعدها.

(8) مفيد نجم : الرؤية والتجليات في خطاب الحداثة الشعرية ، بيان الثقافة ، عدد 5، ص : 20.

(9) عبد الجبّار الرفاعي : دعاة الحداثة وتزييف الوعي ، بيروت:دار الهادي،2002، ص:55

(10) حوار د/ أحمد هيكل مع مجلة القاهرة ، عدد 442، المعهد العالي للخدمة الاجتماعية،1985

(11) مجلة المجلة ، عدد 389 ، ص : 40. والحقيقة أنّ العديد من الشعراء الحداثيين عادوا إلى كتابة القصيدة الكلاسيكية كما فعل "أدونيس".

(12) المرجع نفسه ، ص:40.

(13) ما بعد الحداثة : (la poste-modernité) مصطلح حديث العهد نسبيا ، ويعود الفضل في اختراعه إلى الفيلسوف الفرنسي جان فرانسوا ليوتار (1974) ، وهو يشغل الآن البيئات الثقافية والفلسفية الغربية. وهو يعني أنّ الغرب دخل في مرحلة تاريخية جديدة تتجاوز الحداثة وتتخطاها. للمزيد ينظر :

- فريد النقاش : قضايا ما بعد الحداثة في الأدب والنقد ، مجلة أدب ونقد ، ص: 9- 29.

- أحمد مجدي حجازي : علم اجتماع الأزمة ، القاهرة: جامعة القاهرة ،1999، ص : 140.

(14) مجلة أبعاد ، عدد 4 ، ص : 272 ، 273.

(15) المرجع نفسه ، الصفحة نفسها ، وينظر د/ فريدة النقاش : مرجع سابق ، ص: 9 - 29.

(16) حامد السعدي : أزمة الحداثة وأزمة الخط الإنساني ، مجلة النبأ ، عدد 63 ، ص:1 .

(17) المرجع نفسه ، ص : 2.

(18) المرجع نفسه ، ص : 2.

(19) مجلة أبعاد ، مرجع سابق ، ص : 273.

(20) المرجع نفسه ، ص : 274.

(21) المرجع نفسه ، ص : 4.

(22) عن أهمية التفكير في الإسلام : ينظر : عباس محمود العقاد : التفكير فريضة إسلامية ، حيث أورد في افتتاحية كتابه ما يربو عن الثلاث مائة آية من القرآن الكريم ، فيها دعوة لإعمال العقل والفكر والنّظر.

- أما بخصوص الخلاف المفتعل بين العقل والنّقل ، فإنّ القصة لم تعرف إلاّ بعد عصر الترجمة. والحقيقة أنّ النصّ والعقل يسيران معا جنبا إلى جنب خاضعين لحاكمية الله المطلقة ، لأنّ النص يرشد العقل ويوجهه ، والعقل يتفهّم النص ويستوعبه ويحسن تطبيقه وفهمه وربطه بالواقع دون أيّة عملية صراع. وقد عبّر عن هذا الشاطبي فقال : « الأدلة الشرعية ضربان : أحدهما يرجع إلى النقل المحض ، والثاني يرجع إلى الرأي المحض ، وهذه القسمة هي بالنسبة إلى أصول الأدلّة ، وإلاّ فكل واحد من الضّربين

مفتقر إلى الآخر ». ينظر : الشاطبي : الموافقات ، ج3 ، م2 ، ص: 17

(23) تركي الحمد : الثقافة العربية في عصر العولمة، القاهرة:دار الساقي، ط1، 2004، ص : 6.

(24) زكي الميلاد ، تركي علي الربيعو : الإسلام والغرب : الحاضر والمستقبل، دمشق: دار الفكر،1998، ص : 15 ، ويرى زكي الميلاد، وانطلاقا من قوله تعـالى : } تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ { [البقرة : 3/ 134]. أنّنا اليوم امّة غير الأمّة التي تدخّلت في الجوانب الحضارية والمدنية ، أي في النظم والوسائل والأدوات والتقنيات والطرق المتغيرة والمتطورة من زمن لآخر.

(25) أدونيس : بيان الحداثة، ضمن كتاب البيانات. البحرين: أسرة الأدباء و الكتاب،ط1993،1، ص: .125